

٢٥ - الجيش الفرنسي يعاني من هزيمة ساحقة . الطلائع التي سارت أمام الجيش تنجو .

واعترض طريق الجيش الزاحف جبل صعب المرقى ، شديد الوعورة ، وكانت خطة المسيرة قد قضت بأن يتم الوصول إلى القمة في ذلك اليوم ، وجرت العادة أثناء هذه الحملة أن يتم تعيين عدد من الرجال المعروفين ، كل منهم في أحد الأيام للعمل بمثابة قادة ، يتولى بعضهم قيادة الطلائع ، ويتولى بعضهم الآخر حماية المؤخرة ، ويصرف عنايته نحو جموع الناس من غير العسكريين ، خاصة المشاة منهم ، وكان على هؤلاء الرجال واجب مشاركة النبلاء في تحديد الطرق التي ستركب ، ومقدار مرحلة الزحف ، ومكان المخيم لليوم التالي ، ووقع الاختيار ، بحكم الدور ، في ذلك اليوم الموعود على واحد من نبلاء أكوتين واسمه جيوفري رانكون ، وتبعاً لذلك تقدم أمام الجيش ، ومعه لواء الملك ، وصعد الجبل ومعه الطلائع ، وكانت الأوامر المعطاة إليه هي أن يقوم رجال الطلائع بنصب المخيم في الأعالي ، ولدى وصوله إلى القمة ، وكان الجزء الأكبر من النهار على حاله بعد ، هنا قرر جيوفري الزحف قليلاً إلى الأمام متخلياً بذلك عن الأوامر ، وذلك لشعوره بأن المسافة المقررة لذلك اليوم قصيرة جداً ، وكان الأدلاء قد أكدوا له وجود بقعة أنسب لنصب المخيم ، ولهذا ابتعد كثيراً ، وحدث في الوقت نفسه أن الناس الذي يتبعون خطى الطلائع ، خيل إليهم بأن المعسكر قد ضرب على قمة الجبل ، ونظراً لاعتقادهم بأن مسيرة ذلك اليوم شارفت على الانتهاء بدأوا بالتماهل ، وهكذا توزع الجيش ، فبعض من أفراد اجتاز الشعاب ، بينما كان البقية يتبخترون عليها ، ولاحظ التركمان ، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قيام فرصة للهجوم ، لاحظوا الأحوال المستجدة فهم في الحقيقة كانوا يماشون الجيش عن كثب غير مرئيين ، ويراقبون تحركات النصارى تمام المراقبة ، وكانت الطريق ضيقة والصفوف مبعثرة ، يضاف إلى ذلك أن قسماً من

خيرة القوات كان قد تقدم ، وأدرك التركمان يقينا بأن أحوال المؤخرة لم يتم التعرف على ما نزل بها بسهولة ، كما لا يمكن ارسال المساعدات إليها نظرا لبعدها الشقة ، وهنا اغتنم هؤلاء التركمان فرصتهم الممتازة ، واستولوا على قمة الجبل مما سبب مزيدا من الفوضى بين صفوف طلائعنا ومؤخرتنا ، ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا ، وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم ، كان التركمان قد مزقوا صفوفهم ، وتوقف القتال بالقوس والنشاب ، والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار والموت على النصارى ، وقد جرت مطاردة كل من حاول الفرار بكل ضراوة ، وأعاقت الممرات الضيقة والشعاب رجالنا ، كما أن خيولهم كانت منهكة بسبب طول السفر ، كما أربكتهم كميات العتاد والحاجيات ، ومع هذا فإنهم قاوموا كل على حدة بكل شجاعة ، وذلك دفاعا عن حياتهم وحررياتهم وعن رفاق الطريق ، وتابعوا القتال بالسيوف والرماح وكانوا يثيرون حماسة بعضهم بكلمات التشجيع وبالصرخات لمتابعة الكفاح والمثابرة .

وازدادت حماسة التركمان وأملهم بالنصر وسعوا إلى إثارة النخوة بين صفوفهم ، وأعادوا إلى الذاكرة ، ما حدث قبل بضعة أيام مضت ، حين استطاعوا ايقاع الهزيمة بجيش كان أكبر من هذا بكثير ، وكيف أنه بجهد أقل ومخاطرة أدنى حققوا النصر على قوات كانت أكثر عددا ، وأعظم قوة .

واستمرت المعركة طويلا ، وحام الشك حول نتائجها ، ومهما يكن الأمر فقد حلت النهاية ونزل بنا العقاب لما اقترفناه من ذنوب وأثام ، فاننصر الكفار ، وقتل عدد كبير من النصارى ، ووقع عدد لا يحصى في الأسر ، وأنزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة ، وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم ، وكانوا رجالا تميزوا بأعمالهم العسكرية ، وطاب ذكرهم وحمد لتقاهم ، وكان بين أعدادهم الكبيرة كونت فيرنسدي برتويل ، واتيرس دي مينجانك ،

وأخرون كثير ، نحن لا نتذكر أسماءهم ، لكننا نؤمن أنها كتبت في
عليين ، وأن نكراهم ستظل مثالا يشار إليه دائما(١٥)

وزالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة ، وتلطخت سمعتهم ، لسوء
الحظ ، من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى ، فشجاعتهم التي
كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم ، قد سحقت ومرغت بالرغام ،
وغدت منذ ذلك اليوم أضحوكة ووسيلة هزء في أعين الشعوب
المدنسة ، التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل .

لماذا هذا كله ؟ تباركت يا مولاي يا يسوع ، فهؤلاء الناس الذين
وهبوا نفوسهم لك وأوقفوها عليك ، والذين اشتاقوا طويلا للسير
على خطاك ، ولتقبيل جميع الأماكن التي باركتها بحضورك
الجسدي ، لماذا حلت بهم الهزيمة القاسية على ايدي الذين يكرهوك؟
حقا إن احكامك لايمكن سبر غورها ، وليس هناك من هو قادر
على فهمها ، لأنك وحدك يا سيدي قادر على فعل كل شيء ، وما من
أحد يستطيع أن يقاوم ارادتك .

٢٦ - الملك ينجو مصادفة ويلتحق بالطلائع . وصول
بقية الجيش إلى أنطاكية وعبره من هناك إلى
سورية .

وحدث في ذلك الحين أن نجا الملك - إنما بفضل حظه ، وليس
بسبب جهوده - نجا من وسط المخاطر والفضوى ، ففي بهيم الليل
تمكن من تسلق الشعاب الجبلية السابق ذكرها ، دون دليل يرشده ،
وكان بمرافقته عدد صغير من حاشيته ، وتمكن من الوصول الى
المعسكر الذي كان قد نصب بعيدا عن المكان الذي قرر له وكما سلف
التبيان فإن رجال الطلائع زحفوا خلف الراية الملكية ، واجتازوا
الممرات الجبلية الضيقة دونما صعوبات تذكر ، وأقاموا المعسكر

دونما معارضة ، وذلك في موقع مناسب ، وكانوا يجهلون بشكل مطبق كل ما حدث للجيش في المؤخرة ، ومع هذا فقد وجدوا أن وصول الجند قد اعاقا عائقا ما ، وأن التأخر الكبير لوصولهم ما هو الا لتأخير شؤم يحمل خبر مصيبة ما ، وتوجسوا جميعا وقبوع شر لا يمكنهم دفعه ، لكن عندما وصل النين نجوا بمرافقة الملك الى المعسكر غدت اخبار الكارثة مؤكدة ومعروفة ، وعندما اخذ الحزن مأخذه من الجيش ، كما استحوذ الخوف والقلق على قلوب الجميع ، وبأصوات مرتجفة ووسط الدموع والآهات فتش كل واحد عن هؤلاء النين كانوا اعضاء عليه ، وعندما عرفوا خبر فقدانهم تضاعف الحزن ، وترددت اصوات البكاء والنحيب في جنبات المعسكر ، ومزق الذعر قلوب العساكر ، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممثلنا ببكاء الاصحاب والاهل والرفاق ، فواحد فتش عن والده وآخر عن سيده ، وامرأة تبحت في كل مكان عن ولدها ، واخرى عن زوجها ، وامضى هؤلاء النين لم تثمر اعمال بحثهم عن شيء ، امضوا ليلتهم بلا نوم ، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ما وقع على المتغييبين ، وحدث اثناء الليل أن وصلت جماعات من كل فئة ، كلهم نجا بعامل الحظ لاجتناب التدبير ، ذلك أنهم تخفوا بين الاحراج والصخور وفي داخل الحفر ، وتستروا تحت جناح الظلام الذي حماهم ، وراف بهم ، ووقعت هذه الكارثة في كانون الثاني من سنة ١١٤٦ لتجسيد الرب (١٦) .

وبدا المعسكر منذ ذلك الحين يشهد نقصا في الخبز وبقية المؤن ، زد على هذا أنه لم يكن هناك سوق وبيع وشراء من أي نوع ، والاسوأ من هذا والانكى أن اهل المعسكر لم يكن لديهم ادلاء يرشدونهم ، وكانوا تائهين يزدحقون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين هم ، واخيرا دخلوا الى بلدة بامفيل ، وبعد اجتيازهم لمنحدرات جبلية شديدة الوعورة ، ولأودية عميقة ، وبعدما واجهوا شبيد العناء ، إنما دون الصدام بالعدو نجحوا في الوصول الى أنطالية التي كانت حاضرة منطقة حملت اسمها ، وتقع أنطالية على شاطئ

البحر ، وهي تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية جدا ، إنما كانت بلا منافع لأهل المدينة ، لأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب ، مما أعاق زراعتها ، ولهذا تركت الأراضي الجرداء بورا ، لأنه لم يكن هناك من يعمل بها ، ومع ذلك فلقد كان لهذا المكان مزايا وفوائد أخرى كبيرة ، منها : سهولة الوصول اليه من قبل الزوار ، وبهاء الموقع وروعته وكثرة مياهه الصافية والصحية ، ولأنه كان مزروعا بأشجار الفواكه ، كما كانت الحبوب تحمل اليه من وراء البحار بكميات وافرة ، لذلك كان هذا الملجأ مملوءا بجميع المؤن الضرورية للحياة.

وكانت حدودها قريبة جدا من أراضي العدو ، ونظرا لعدم استطاعتها مواجهة غاراته المتواصلة عليها ، فإنها كانت تدفع الجزية له ، وبسبب هذه الصلات ، فقد احتفظت أنطالية بتجارة البضائع الأساسية مع العدو ، وقد صحف عساكرنا اسم هذه المدينة ، فلفظوها « ساضاليا » ذلك أنهم لم يكونوا معتادين على اللغة الاغريقية ، ومن اسم أنطالية نجد أن المنطقة البحرية الممتدة من ليسدونا الى جزيرة قبرص قد دعت باسم بحر أنطالية ، وهو يعرف بشكل عام في استخداماتنا باسم « خليج ساضاليا ».

وفي أنطالية عانى ملك الفرنجة وشعبه من نقص شديد بالأطعمة تسبب عن الزيادة العظيمة التي طرأت على عدد السكان هناك ، وفي الحقيقة كان ما حدث أن الناجين من الجيش ، وخاصة الفقراء منهم هلكوا جوعا ، وفي أنطالية ترك الملك شعبه ليتابع أفراداه الزحف على أقدامهم ، وركب هو مع نبلائه ظهر احدى السفن ، وحين أبحر كانت كل من اسوريا وكليكية على يساره وجزيرة قبرص على اليمين ، وكانت الرحلة قصيرة ، وقد وافقته ريح طيبة ، ولقد ابحروا الى داخل قم (مصعب) نهر العاصي الذي يمر

بأنطالية ، وألقوا مراسيهم قرب مكان اسمه ميناء القديس سمعان (السويديّة) على مقربة من مدينة سلووقية القديمة التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية (١٧) .

٢٧ - ريموند أمير أنطاكية يستقبل ملك الفرنجة في ميناء القديس سمعان بكل حفاوة ويصحبه الى أنطاكية . فيما سيقع الخلاف بينهما ويفترقان .

انتظر ريموند أمير أنطاكية عدة أيام وصول ملك فرنسا بشوق كبير ، ولدى سماعه بأن الملك نزل في مملكته ، جمع جميع نبلائه وأعيان الناس ، ونهب لاستقباله يرافقه وفد خاص ، وقام بتأقيه أحسن لقاء ، وحياه أطيب التحيات ، ورافقه الى أنطاكية وسط مظاهر من الأبهة والحفاوة الكبيرتين ، وهناك في أنطاكية استقبل الملك من قبل الإكليروس والشعب ، وكان ريموند قد تصور منذ زمن - في الحقيقة منذ أن سمع أن لويس قادم - أنه بمساعدة لويس سيتمكن من توسيع رقعة إمارة أنطاكية ، ولما كانت هذه الفكرة في ذهنه نجده قد أرسل الى الملك لويس - وهو مازال في فرنسا - لم يبدأ بعد رحلته للحج - هدايا وتحف ذات اثمان مرتفعة ، كل ذلك على أمل أن يكسب مودته ، وقد علق كبير الأمال على الملكة التي جاءت برفقة الملك ، وكانت رفيقته التي لم تفارقه على طريق حجة ، ذلك أنها الابنة الكبرى لأخيه الكونت وليم صاحب بواتو . (١٨)

وكما ذكرنا من قبل أظهر ريموند تجاه الملك كل رعاية وعناية ، كما أبدى المشاعر نفسها تجاه نبلائه وأعيان حاشيته الملكية ، وبرهن لهم مرارا عن مدى كرمه ، وباختصار بذل كل ما أمكنه من تبجيل وإكرام لكل واحد من النبلاء كل حسب مرتبته ، وتصرف بكل

البداية اختلفت كليا عن النهاية ، فقد أحيط قدومه بالأبهة والاحتفاء ، وانعكست الأمور فكانت مغادرته محاطة بالاهمال التام وعدم الاكتراث.

ويعزرو بعض الناس هذا كله الى سوء تصرف الملك ونكرانه للجميل ، وأنه بذلك تلقى جزاءه العادل ، حيث أنه لم يستجب لمطالب أمير عظيم ، قدم له ولاتباعه رعاية وحسن معاملة ، ولهذا الرأي مكانة خاصة ، سيما وأن أصحابه يؤكدون أنه لو استجاب لمطلب الأمير ، وأوقف نفسه على تنفيذ مشروعه ، لسقطت واحدة أو اكثر ، من المدن المذكورة أنفا وبكل سهولة.

٢٨ - انقضاء الشتاء - وصول الامبراطور كونراد الى سورية بحرا - وصول الكونت الفونسو الى مدينة عكا ووفاته في قيسارية.

أمضى امبراطور كونراد الشتاء في العاصمة الملكية ، وقد عومل هناك بكل احترام من قبل امبراطور القسطنطينية ، ولقي منه من الاكرام ما يليق بمكانته كأمرير عظيم ، ولدى مغادرته للمدينة أتحنه بعدد كبير من الهدايا الفخمة ، وأبحر كونراد محاطا بحاشيته من النبلاء على متن اسطول أعد له خصيصا من قبل صاحب الجلالة الامبراطورية ، واتجه به هذا الاسطول نحو الشرق ، وأرسى قلوعه في ميناء عكا ، حيث توجه كونراد من هناك الى القدس ، وقام الملك بلدوين - ملك القدس - مع الطيب الذكر البطريرك فسولتشر يصحبهما الاكليروس وجميع الشعب بتلقيه خارج المدينة ، ومشوا في ركابه الى داخلها وسط الأغاني والانشيد (٢٠)

وفي الوقت نفسه وصل الى عكا رجل عظيم المكانة وواسع الشهرة هو الفونسو كونت طولوز ، وهو ابن الكونت ريموند الأكبر ، ذلك

القائد الكبير الذي قام بأعمال هامة في الحملة الأولى ، وكان الفونسيو هذا رجلا سامي المكانة ، لما يتمتع به من صفات ، وأكثر من هذا بسبب مكانة أبيه وذكراه الطيبة ، وبينما كان في طريقه الى القدس لتقديم فروض الشكر والامتنان لتوفيقه في انجاز مهمة حجة ، توقف عند ساحل مدينة قيسارية ، وبعد وصوله الى هناك بأيام وقع مريضا ومات ، ولقد أشيع بأن السم قدس له ، لكن مدبر ذلك لم يتم اكتشافه ، وكان الناس جميعا قد انتظروا وصول هذا الرجل الطيب الذكر بفارغ الصبر ، ذلك أنهم كانوا كلهم أمل ورجاء بأنه سيجلب معه السعادة والازدهار للملكة ، وذلك تيمنا بسيرة والده العظيم.

٢٩ - ملك فرنسا يغادر أنطاكية ويتابع سيره نحو القدس - ارسال بطريرك القدس لاستقباله.

ووصلت الأخبار في ذلك الحين الى القدس ، تفيد بأن ملك الفرنج قد غادر أنطاكية ، وهو الآن على مشارف أراض طرابلس وهنا قرر النبلاء في الملكة بالاجماع ارسال فولتشر بطريرك القدس - طابت ذكراه - ليقدم دعوة للملك تتناسب مع مقامه وليعبر له عن تحيات الجميع ، ودعوتهم له لزيارة الملكة ، واتخذ هذا الأجراء خشية أن يتصالح مع أمير أنطاكية فيعود اليها ، أو أن يحتفظ كونت طرابلس به بحكم قرابته منه ، مما كان سيؤدي في كلتا الحالتين الى اعاقاة رغبات شعب الملكة.

وتوزعت ممتلكات اللاتين في المشرق بين أربع امارات : كانت اولها واقعة إلى الجنوب من مملكة القدس ، التي تبدأ بجدول ماء يجري بين جبيل وبيروت ، وتضم المدن الساحلية لمنطقة فينيقية ، وتنتهي بالصحراء الواقعة خلف الدارون ، وتقوم الثانية في الشمال ، وهي كونتية طرابلس وتبدأ من الجدول الأنف الذكر وتمتد

إلى جدول آخر قائم بين مرقية و بانياس ، وتحتوي أيضا على مدن ساحلية ، وكانت امارة انطاكية هي الامارة الثالثة ، وتمتد من الجدول الأنف الذكر غربا حتى طرسوس في كيليكية ، والرها هي القسم الرابع ، وتبدأ من غابة تدعى مريم ، وتمتد شرقا إلى ما وراء نهر الفرات .

ومنذ البداية عاش جميع كبار أمراء هذه المناطق وأكثرهم قوة على رجاء وأمل أنه بالمساعدة الفعالة لهؤلاء الملوك القادمين سيكون بالإمكان توسيع رقعة أراضيهم ، ومد حدودهم بشكل كبير جدا ، فلكل منهم توفر عدو قوي كانت مدنه البغيضة ، قريبة جدا إلى أراضيهم إلى درجة أن كل واحد منهم رغب رغبة حقيقية جامحة في ضمها إلى ممتلكاته ، وعلى هذا فالجميع كانوا في قلق واضطراب حول قضاياهم الخاصة ، وكلهم راغب في توسيع أراضيهم ، ولهذا نوى كل واحد منهم أن يسبق الآخر بإرسال الرسائل والهدايا والدعوات لكل من الملكين ، ومع ذلك فقد بدا بين هؤلاء جميعا أن آمال ملك القدس وأماني أهلها هي الأقرب إلى التحقيق من سواها ، ذلك أن حب الأماكن المقدسة واجلالها ، لا شك أنه يجذب الجميع إلى هناك ، زد على هذا أن الامبراطور كان مع أهل القدس ، لذلك كان هناك سبب بليغ للاعتقاد بأن ملك الفرنجة سيسرع الخطى نحو القدس ، لينجز كلاهما حجه ، وليؤدي صلواته ، ثم لينخرط في عمل ما يكون مفيدا للنصرانية ، كما كان قد تقرر في الاجتماع العام . وخشي أعيان مملكة القدس أن يقدم أمير انطاكية على منع الملك لويس من السفر ويبقيه في منطقة حلب لسبب روابط القرابة بينهما والصداقة ، وكان هذا أمرا واضحا ومعقولا ، كما أنهم خشوا من تدخل الملكة ، لهذا سارعوا بإرسال البطريرك لمقابلته .

ولدى معرفتهم بأن الملك والامير قد افترقا وهما أبعد الناس عن

مشاعر الصداقة شعروا بمزيد من الأمل بأن الملك سيقدم إلى القدس
دونما تأخير ، ومع هذا ، وخشية الحظ العاثر ، وحتى يتم مسبقا
تدارك أي شيء يمكن حدوثه ، أرسلوا البطريرك المجل كيمبا يستخدم
نفوذه على الملك ، ولم يكن هذا الأمر المأمول عبثا ، فقد قنع الملك
بكلمات فولتشر وتابع سيره نحو القدس ، وخرج جميع رجال
الكليروس وأهل المدينة لاستقباله لدى وصوله ، وقد استقبل
استقبالا حافلا يليق بمقامه ، ودخل المدينة مرحبا به ، ومضى وسط
الأناشيد والتهنئات يقوده النبلاء لزيارة الأماكن المقدسة .

ولدى اتمامه آخر صلواته تم الاعلان - تبعا للتقاليد
المرعية - عن عقد مجمع عام في مدينة عكا لاستعراض نتائج هذا
الحج العظيم ، وللعمل على اتمام هذا الجهد غير الاعتيادي ،
وللتباحث في مدركة الملكة ، وفي التاريخ المحدد التقى الجميع في
عكا وعقدوا مجمعهم كما كان مخططا ، ثم شرعوا مع نبلاء الملكة
الذين يملكون معلومات دقيقة بالوقائع والأماكن ، وانخرطوا في
مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط أكثر فائدة (٢١)

نهاية الكتاب السادس عشر

بداية الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان محصلة ما باءت به الحملة
الصليبية الثانية .

١ - عقد اجتماع عام في مدينة عكا الساحلية - أسماء الحضور
من الأمراء

إنه لأمر مفيد ، ويتوافق مع روح هذا التاريخ أن نأتي على ذكر
أسماء النبلاء الذين كانوا حاضرين في المؤتمر ، لقد كانوا رجالا
جاؤوا من بلدان عالية المكانة ، لذا ينبغي علينا أن نأتي على ذكرهم
هنا لمنفعة الأجيال المقبلة : وتصدر كونراد - ملك الألمان وامبراطور
الرومان - الجمع ، وكان بصحبته من نبلاء الأكليروس في
بلاطه : أوتو - أخوه - الذي كان أسقف فريزنغ ، وكان رجل فكر
وكتابة (٢٢) ، وستيفن أسقف متز ، وهنري أسقف تول ، وهو أخو
ثييري كونت فلاندرز ، وثيوتون أسقف بورتو ، وممثل البابا ، وكان
أصله المانيا ، وقد قام بمرافقة الركب الامبراطوري بناء على امر من
البابا يوجينوس.

وكان بين الأمراء العلمانيين الحاضرين : هنري نوق النمسا ،
وهو أخو الامبراطور ، ودوق غيولف ، الذي كان من أبرز النبلاء
وأكثرهم قوة ، وفريدريك ، الواسع الشهرة ، نوق سوابيا
وفندلسيا (وربما بافاريا) وهو ابن أكبر أخوة الامبراطور ، وكان
هذا الأمير المذكور أخيرا شابا متميز الصفات ، وقد خلف عمه
كونراد فيما بعد ، وهو يقوم اليوم بحكم الامبراطورية الرومانية بكل
نشاط وشجاعة ، وكان بين الحاضرين أيضا هرمان مركيز
فيرونا ، وبرثولد سيد أندش ، ثم نوق بافاريا فيما بعد ، ووليم

الأكبر مركيز مونقترات ، عدیل الامبراطور فی الزواج ، وغي كونت بلاندراس ، الذي كانت زوجته أخت المركيز السابق الذكر ، وكان الأميران المذكوران أخيرا من أعظم الأمراء وأكثرهم شهرة ، وقد جاء جميعا من لومباردي ، كما كان هناك عدد آخر من الرجال ذوي المناصب العالية ، لم أعد أنكر أسماءهم (٢٣) .

وكان لويس العظيم الذكر ، وملك الفرنجة التقسي ، بين الحاضرين ، وبصحبته غودفري أسقف لانجرز ، وأرنولف أسقف ليز أوكس ، وغي سيد فلورنسا ، وكريدينال كاهن لكنيسة روما واسمها كنيسة القديس كريسو غونوس ، والقاصد الرسولي ، وروبرت كونت برشي ، وهو أخو الملك ، وهنري كونت ترويس ابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، وفي الوقت نفسه ختن الملك ، وكان شابا له أخلاق ومزايا عالية ، وكان مع الملك ثيري الكونت الكبير لبلاد فلاندرز ، وكان عديلا بالزواج ملك القدس ، وايفس من سواسون الذي كان رجلا عاقلا ومخلصا ، كما كان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار أصحاب المراتب العالية وهم جديرون جميعا بالذكر ، لكن بما أن ذلك سيشفل حيزا كبيرا ، تعمدت حذف أسمائهم (٢٤) .

وحضر من رجال بلادنا : بلدوين ملك القدس ، وهو شاب يبشر بمستقبل عظيم ، وحضرت معه والدته ، التي كانت سيده عاقلة فاقت مثيلاتها ، قوية القلب ، ولم تكن أقل حكمة وتديبرا من أي من الأمراء الحضور ، وكان بمرافقتها البطريرك فولتشر ، وبلدوين أسقف قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وروجر أسقف عكا ، وبرنارد أسقف صيدا ، ووليم أسقف بيروت ، وأدم أسقف بانياس (الداخل) وجيرالد أسقف بيت لحم ، وروبرت مقدم فرسان المعبد (الداوية) ، وريموند مقدم فرسان الاستبارية (٢٥) .

وكان بين أعيان النبلاء الحاضرين ماتسيس المراقب الملكي العام ، وفيليب أمير نابلس ، وإيلينا صاحب طبرية ، وجيرارد

صاحب صيدا ، ولتر صاحب قيسارية ، وبينز صاحب المناطق الواقعة فيما دون الأردن ، وبالين الأكبر ، وهمفري سيد تورون ، وغي صاحب بيروت ، وآخرون كثر ، لو اكتفيت بتسجيل أسمائهم ، لاحتاج ذلك مني حيزا كبيرا ، ولقد اجتمع هؤلاء الرجال ، كما أسلفنا الذكر في مدينة عكا بقصد التباحث قبل كل شيء حول احسن الاوقات والاماكن التي ينبغي بسذل الجهد فيها ، انشاء الرب ، لتوسيع رقعة المملكة ، ولاضافة مفاخر جديدة الى اسم المسيحية .

٢ - قرروا جميعا القاء الحصار على مدينة دمشق ، والزحف نحوها حسبما تم الاتفاق بينهم :

وتبعنا لهذا فان القضية بحثت بحثا دقيقا ، وعرضت الآراء المتباينة ، وكان اخذ ورد كما هي العادة اثناء بحث مثل هذه القضايا الهامة وتم الاتفاق اخيرا ، انه في الظروف الحالية يبقى افضل الاعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا علينا ، وعندما تم الوصول الى هذا القرار ، صدر الامر الى صاحب النفير ، ان يعلن للملابان عليهم جميعا ان يكونوا في اليوم المحدد جاهزين بلا تلكؤ ، لقيادة عساكرهم نحو تلك الاماكن ، وبناء على هذا حشدت جميع الطاقات العسكرية للمملكة من فرسان ومشاة من كلا الجانبين : البلديين والحجاج ووصل الملكان المحبوبان من الرب ، وبرفقتهما قواتهما ايضا ، وبعد هذا عندما حل اليوم الخامس والعشرون من شهر ايار لسنة ١١٤٧ لتجسيد ربنا ، زحفت الجيوش المتحدة يقودها صليب الصليبوت كما كان مقررا من قبل ، واخذت الطريق نحو طبرية (٢٦) ثم توجهت الحشود جميعها من هناك ، فسايرت اقصر الطرق حول بحيرة طبريا حتى بانياس (التي كانت تعرف باسم قيسارية فيليب) ، حيث تم التباحث مع عدد من الاشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالاحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها ، وبعد التداول بين القادة قرروا ان خير وسيلة لمضايقة دمشق وحصارها ، الاستيلاء اولا على

البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر من المدينة وتقدم لها حماية كبيرة ، حيث انه بعد الاستيلاء على هذه البساتين سيكون من السهل حتما الاستيلاء على المدينة .

وبغية تنفيذ هذه الخطة ، استأنفوا زحفهم ، فاجتازوا جبل لبنان الشهير القائم بين بانياس ودمشق ، ثم نزلوا قرية داريا التي تبعد عن المدينة مسافة اربعة اميال او خمسة ، وكان من السهل من هذا المكان رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها .

٢ - وصف اوضاع مدينة دمشق :

مدينة دمشق هي أكبر مدن سورية الصغرى ، التي تدعى احيانا لبنان فينيقية ، وهي أيضا مركز تلك المنطقة ، وذلك أننا نقرأ: « رأس سورية دمشق (٢٧) » ، وقد اشتق اسم هذه المدينة من اسم مؤسسها وشهرته ، وكان واحدا من خدم ابراهيم ، ومعناه المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم (٢٨) ، وهي تقع وسط سهل جاف جبب فيما عدا المسقي منها بواسطة أقنية ، تجلب المياه من علو لمنفعتها ، وينحدر من الشعاب الجبلية في الجزء الأكبر ، من تلك المنطقة نهر تنقل مياهه في أقنية تساق بها المياه وسط السهل ، لتوزع في مختلف المناطق المنخفضة جالبة الخصب للتربة الجافة ، وحيث ان المياه كثيرة جدا ، فإن النهر يسقي أيضا البساتين الممتدة على جانبيه ، والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة ، ويتابع النهر سيره مخترقا الجانب الشرقي من المدينة .

ونظرا لقرب المدينة من داريا ، فقد قام الملوك هناك بتعبئة قواتهم وصفوها استعدادا للمعركة ، وعينوا لكل فرقة مهامها واهدافها ، وذلك أنهم لو زحفوا بلا اعداد ، لكان من الممكن قيام النزاعات بين بعضهم ، مما كان يسبب اعاقا تنفيذ المهام الملقاة امامهم .

وقد عهد بالاجماع من قبل جميع الأمراء الى الفرقة التي كانت تحت قيادة ملك القدس بمهام التقدم أمام الجميع وشق الطريق لبقية الفرق خلفها ، وذلك على اساس الافتراض انها كانت أكثر دراية بالمنطقة ، وعهد الى ملك الفرنجة وجيشة بالبقاء في قلب الجيش ، أو الصف الثاني على أساس أنه إذا دعت الحاجة يمكنهم تقديم العون للصفوف الأمامية ، وعهد في الوقت نفسه إلى الامبراطور بالصف الثالث ، أو المؤخرة ليكون جاهزا لمقاومة العدو ، وفيما لو حدث وقام بهجوم من الخلف ، وهكذا يمكنه حماية العساكر المتقدمة من خطر اية مفاجأة تأتي من الخلف ، وعندما تم توزيع هذه الجيوش الثلاثة حسب النظام الاستراتيجي الموصوف ، قدموا المعسكر إلى الامام ، وحاولوا قدر استطاعتهم الاقتراب من المدينة .

وتمتد البساتين باتجاه الغرب من حيث جاءت قواتنا ، وباتجاه الشمال أيضا مسافة خمسة أميال أو أكثر باتجاه لبنان ، وقد أحاطت بالمدينة من جميع الجوانب بشكل واسع وعميق ، وكانت أشبه بالغابات المظلمة لكثافة اشجارها ، وقام كل واحد من اصحاب هذه البساتين باحاطة بستانه بجدار ترابي (دك) بغية منع اللصوص من دخولها ولحمايتها ولتحديد مساحتها وفصلها عن سواها ، واستخدمت الجدر الترابية لانعدام الاحجار في تلك المنطقة ، وقد ترك الناس بين هذه البساتين طرقا عامة يستخدمها الجميع ، لكنها كانت ممرات ضيقة ، إنما كافية بالسماح لأصحاب البساتين والعاملين بها اجتيازها على ظهور الحيوانات التي كانت تحمل الفواكه إلى المدينة .

وشكلت هذه البساتين وسيلة وقاية كبيرة للمدينة ، حيث ان الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها والممرات الضيقة ، كل ذلك جعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - بالنسبة لأي انسان الوصول إلى دمشق من ذلك الاتجاه ، ومع هذا فقد قرر قادتنا - منذ البداية - ان يقودوا الجيش من البساتين ، وبذلك

يفتتحون ممرات توصلهم الى المدينة ، وكان مرد ذلك إلى سببين :
أولهما أنه بعد الاستيلاء على هذه الاماكن الشديدة التحصين والتي
وضع بها أهل دمشق عظيم ثقتهم ، سيكون مابقي أخف وأسهل
تنفيذاً ، وثانيهما أنهم (قادة الفرنجة) رغبوا في تمكين عساكرهم
من استغلال الفواكه والاستفادة من الماء .

وبناء على هذا كان ملك القدس أول من قاد رجاله بين ممرات
البساتين الضيقة هذه ، وتقدم الجيش بين مختلف العوائق
والمصاعب ، فقد اعيق تقدمه أحياناً بواسطة الممرات الضيقة ، كما
تعرض من جهة ثانية لمخاطر هجمات العدو الجريئة وكمائنه التي
نصبها مموهة بين جذوع الأشجار ، وقد اقتضى الحال أحياناً
الدخول في معارك مكشوفة ، ذلك أن العدو اغلق المنافذ ، واستولى
على منحدرات الممرات الضيقة ، وزحف أهل دمشق جميعاً وجأؤوا
الى البساتين في نظام واحد واردة متفكة ، في محاولة لايقاف تقدم
الجيش ومنعه من المرور ، بكل من وسائل القتال المباشر والقتال
من وراء المساطر .

يضاف الى هذا كله أنه قام بين البساتين أبنية (قصور - أبراج)
محصنة بشكل جيد ، ومدافع عنها من اناس كانت ممتلكاتهم على
مقربة منها ، لهذا عقدوا العزم على الدفاع عنها ، وقد قاموا من
هذه الموانع والحواجز في صب سيل من النبال مع بقية انواع
المقنوفات وبهذا منعوا حدائقهم ، وحالوا دون الوصول اليها ، ثم ان
الاسهم المرمية عن بعد جعلت الزحف الجماعي غير مأمون تماماً ،
ولم تات هذه الاجراءات الرهيبة ضد قواتنا الزاحفة من جهة
البساتين فقط ، بل توفرت المخاطر من المعيار نفسه لكل من كان
يحاول العبور من جميع الاتجاهات فالرعب الذي كان يقود الى
الموت كان يصدر من كل مكان واتجاه ، فعلى طول الجدران اختبأ
من خلفها رجال لم يكن بالامكان رؤيتهم وكانوا مسلحين بالرمح ،
وكانوا بامكانهم النظر والمراقبة من فتحات صغيرة اعدت بدقة

خصيما في الجدران ، ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبور في خواصرهم واطرافهم ، ولقد قيل ان عددا كبيرا من رجالنا قلد هلك بكل تعاسة ، بواسطة هذه الطريقة في ذلك اليوم وخالصة القول : ان المخاطر التي اعترضت سبيل اولئك الذين حاولوا عبور تلك المرات الضيقة لاتعد ولاتحصى .

٤ - النصارى يشقون طريقهم بالقوة بين البساتين ويستولون بشدة على النهر برغم وجود الاعداء ، وهو نجاح رائع للامبراطور يثير الدهشة ويستحق الوصف .

وادراكا من المسيحيين ادراكا كاملا للوضع ، زادوا من عنف ضغطهم ، فهدموا المباني - وازالوا الحواجز بكل مقدرة ، واستولوا بحماسة على البساتين ، ووضعوا كل من وجدوه داخل البيوت طعمة للسيف ، او اخذوه اسيرا ، ولدى توافد اهالي البلد الذين خرجوا من المدينة للمساعدة على الدفاع عن البساتين ومعرفتهم بما حدث ، تراجعوا خائفين خشية ان يتعرضوا للمخاطر نفسها ثم هربوا إلى داخل المدينة جماعات جماعات ، وحدث الان انه بعدما قتل من قتل من العدو ، وهرب الباقون ان دخلت قواتنا الى داخل البساتين وبنوا معارضة .

ولدى ملاحظة اهالي دمشق بان النصارى سيقدمون حالا من البساتين الى حصار المدينة تقدمت الخيالة الموجودة لديهم مع قوات الحلفاء الذين هبوا لعونهم ، وسارعوا جميعا نحو النهر الذي يجري الى داخل المدينة ، وأملوا انهم باستخدامهم للنبل والنشاب والحرب سيتمكنون من ابعاد عساكر العدو المنهكة عن النهر ، ومنعها من اطفاء عطشها الشديد بالماء الذي طال شوقهم اليه ، وحالما علم النصارى باقترابهم من النهر اندفعوا نحوه عاقدين العزم

على اطفاء عطشهم الذي لايرحم والذي نجم عما بذلوه في ذلك اليوم من جهود مضنية ، ونتيجة لسحب الغبار التي تشكلت بفعل حوافر الخيول واقدام الرجالة ، ولدى رؤيتهم لحشود القوات المتجمعة حول النهر ، وقفوا قليلا ، وجمعوا شجاعتهم ، وأعادوا رص صفوفهم وتنظيمهم بعدها منحتهم الحاجة مزيدا من الجراة والاندياع وتقدموا يكافحون ثانية في سبيل الاستيلاء على النهر ، لكن عبثا فعلوا فقد نالوا المزيد من الاخفاق .

وبينما كان الملك وقواته عبثا يحاولون الاستيلاء على النهر استفسر الامبراطور كونراد ، الذي كان يقود الصفوف الخلفية ، حول سبب عدم تقدم الجيش ، فأخبر بأن العدو متملك للنهر ولايسمح لقواتنا بالمرور ، فإغضبته هذه الاخبار ، وقام بقيادة فرسانه ، واسرع الخطا نحو مكان المعركة مخترقا صفوف قوات الملك التي كانت تحاول الاستيلاء على النهر ، وهنا قفز الجميع من على ظهور خيولهم وترجلوا كما جرت عادة الالمان ، فهم عندما كان يحزبهم امر ويشتد بهم القتال يترجلون ويحملون ترستهم بأيديهم امامهم ويشتبكون بقتال يد الى يد بوساطة السيوف ، وقاوم الدمشقيون في البداية بكل شجاعة لكنهم حالما شعروا انه ما عاد بإمكانهم الصمود في وجه الهجوم العاتي تخلوا عن النهر وهربوا نحو المدينة بكل سرعة ممكنة (٢٩) .

ولقد قيل بأن الامبراطور قام أثناء القتال بإنجاز يستحق التنويه به ، وبرهن على براعة جديرة بالذكر ، ذلك أنه تمكن من قتل واحد من كبار فرسان التركمان ، كان يبذل جهودا مضنية ويظهر شجاعة نادرة في المقاومة ، حيث نفحه الامبراطور بضربة واحدة بالسيف ، فأزال منه الرأس والرقبة والكتف الأيسر والذراع المعلق به ، وقد بعث هذا العمل الهلع ليس في قلوب الذين شهدوا هذه البراعة التي لانظير لها ، بل في قلوب الذين سمعوا بها ، الى حد أنهم فقدوا كل أمل بالمقاومة وقنطوا من الحياة نفسها .

٥- سكان دمشق شرعوا لقنوطهم بالتفكير بالفرار ، تقديمهم الرشوة لبعض قادة النصارى الذين قام الجيش بناء على تحريضاتهم بالتحول الى الجهة المقابلة من المدينة .

أما والنهر قد تملكه النصارى وصاروا يصلون الى ضفتيه بكل حرية فإنهم نصبوا الآن معسكرهم على امتداد الضفة النهر حول المدينة وتصرفوا بمياه النهر واستفادوا منها دونما معارضة ، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين ، واستولت الدهشة على أهل المدينة وبهتوا بسبب كثرة تعداد النصارى وشجاعتهم ، وبدأ يساورهم الشك فيما : اذا كانت قواهم كافية للتصدي لهم ، وخشية أن ينقض عليهم العدو بشكل مفاجيء ، عقدوا الاجتماعات لبحث الأمور وببراعة وحذاقة هؤلاء الذين يقعون في ظروف قاسية فيقدمون على اتخاذ القرارات الصعبة ، جاءوا بجنوع أشجار ضخمة وطويلة فسدوا بها جميع الطرقات على أطراف المدينة المقابلة لمعسكرنا ، ذلك أن أملهم الوحيد كان الآن في أن يتمكنوا من الفرار من الاتجاه المعاكس صحبة نساءهم وأطفالهم ، وذلك أثناء انشغال النصارى في إزالة هذه الحواجز وتحطيمها .

وبدا لجميع الحضور أنه بمشيئة القدرة الربانية سيتم الاستيلاء على المدينة من قبل النصارى ، لكن الذي « فعله المرهب نحو بني آدم » (٣٠) قضى أمرا آخر ، فقد كانت المدينة بحالة من الهلع حيث فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة ، وكانوا يعدون أنفسهم ليفادروها بكل سرعة ، على أمل انقاذ حياتهم ، وفي تلك الساعة الحرجة ، وجاء لذنوبنا ، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدة جشع بعض الناس ، فحاولوا عن طريق الرشاوى تملك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم ، واثر هذا وبناء عليه قامت مناقسات بارعة ، قادها بعض

النبلاء الذين مارسوا دور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسليم مبالغ طائلة من المال تم جمعها ، بالعمل على رفع الحصار ، وقام هؤلاء الرجال ، يقودهم الجشع - أصل الشرور جميعا - بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسليم الرشاوى والوعود ، فغرقوا في مستنقع الجريمة ، وهكذا أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك وأمراء الجيوش الذين وثقوا بهم تمام الثقة ، وركنوا الى اخلاصهم ، أقنعوهم بترك البساتين ، وتحويل الجيوش الى الجهة المعاكسة من المدينة ، وحتى يتمكنوا من تغطية جريمتهم احتجوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة ، التي تواجه الجنوب والشرق ، لا يوجد فيها بساتين حماية ولانهر ولا خندق يعيق الوصول الى دفاعات العدو ، كما أعلنوا أن السور المنخفض والمبنى بطوب مجفف بالشمس ، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم ، وسيكون هناك حاجة قليلة لألات الحصار ، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة ، فالسور سينهار مع أول ضربة ، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة الى داخل المدينة ، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي ، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرضت للضغط الشديد ، وباتت منعدمة القدرة على الاستمرار في الصمود ، ومع ذلك لم تسقط ، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم القدرة على الاستمرار في مقاومة الحصار ، وانطلقت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتحدة ، وأمنوا بصحة الأقوال المخادعة ، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير ، وبفقدان الرجال ، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها ، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة .

وفي الحال أتركوا أن هذا الموقع كان بعيدا عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول اليه ، ولما بدأت الأطمعة في النقصان لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها ، وعندها - انمسا بعد فوات الاوان - أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع الممتاز (٣١)

٦- انعدام الطعام في المعسكر - وضوح معالم الخيانة الخبيثة - ورفع الحصار وعودة شعبنا الى دياره .

وبدا الطعام بالنقص في المعسكر ، فقبل إقامة المعسكر ، قيد النصارى الى الاعتقاد بأن المدينة ستسقط دونما تأخير ، ولهذا جلبوا معهم من المؤن مايكفي لعدة أيام فقط ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للحجاج بشكل خاص ، ولايمكن توجيه اللوم اليهم لذلك ، بسبب عدم معرفتهم بالبلاد ، فلقد تم اقناعهم بأن دمشق ستسقط مع أول هجوم ، وتم التأكيد لهم في الوقت نفسه أنه اذا انعدمت جميع المؤن ، فان جيشا كبيرا مهما كان حجمه يمكنه أن يعتمد في غذائه على الفواكه التي سيحصل عليها بلا مقابل (٣٢) ، وعم الشك وسيطر التوجس على النصارى في هذه الطوارئ ، وعقدت المشاورات الخاصة والعامة ، وبدا واضحا ان العودة الى الموقع السابق صعبة لابل مستحيلة ، لانه ما ان انسحب النصارى حتى تحققت غايات العدو ، الذي سارع بالدخول الى البساتين لاقامة دفاعات اقوى مما سبق ، فالطريق التي سبق للنصارى ان دخلوا منها سدت الآن بجذوع اشجار ضخمة ، وبكميات من الصخور ، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من النباله حالت دون امكانية الدخول من اي جانب ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلب بعض الانتظار ، وهذه مسألة لم تسمح بها حالة نقص المؤن .

واجتمع امراء الحج وتباحثوا بين بعضهم ، ووضحت لهم جميع معالم خيانة هؤلاء الذين وثقوا بهم ، واعتمدوا عليهم ، فأودعوهم حياتهم ومصالحهم ومنافعهم ، والمهم كثيرا أن يخدعوا بهذه الصورة ، واقتنعوا بأن عملهم لاحظ له بالنجاح ، لهذا قرروا التخلي عنه والعودة الى الديار ، وهكذا بسبب أثامنا ان الملك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد لاتحصى

اجبروا على التراجع دون التمكن من تنفيذ مآربهم ، عادوا وهم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف ، وسلكوا في طريق عودتهم نفسها الطريق التي أتوا عليها ، ونظروا منذ ذلك الحين - طيلة مدة بقائهم في المشرق - وحتى بعد ذلك - نظرة كلها ريبية الى جميع أعمال قادتهم ، ومالوا بحق الى الاعتقاد بأن جميع خططهم خطط خيانية ، وأظهروا لامبالاة تجاه قضايا الملكة ، وحتى بعدما اتيح لهم العودة الى بلادهم فان ذكرى الأخطاء التي عانوا منها ظلت مرافقة لهم ، وقدروا بغضب واشمئزاز أعمال أولئك النبلاء ، ولم يكن هذا حقيقة بالنسبة لهم فقط ، وانما امتد اثره الى آخرين ممن لم يكن حاضرا هناك ، فأدى الى التراخي في حب الملكة ورعاية مصالحها ، ونتيجة لكل ماسبق ، فان قلة من الناس هم الذين بقيت لديهم الحماسة للقيام بالحج ، زد على ذلك ، فسانه حتى أيامنا هذه ، ان هؤلاء الذين يقدمون ، يخشون الوقوع في المحنة نفسها لذلك يجعلون اقامتهم قصيرة قدر الامكان .

٧- طرحت مختلف الآراء حول مسؤولية هذه الخيانة الكبيرة - الاقتراح بالقاء الحصار على عسقلان للمرة الثانية ، لكن المحاولة لم تنجح .

مازلت اذكر أنني غالبا ما تابحتت مع عدد من الرجال العقلاء ، ممن لاتزال ذاكرتهم حول هذه الأيام واضحة ، بغية استخدام المعلومات التي يمكن الحصول عليها في هذا التاريخ (٣٢) ، وقد جهدت في سبيل معرفة اسباب هذا الخطأ الجسيم ، وكشف الذين خططوا لهذه الخيانة الكبيرة ، وكيف أمكن تنفيذ جريمة من هذا النوع ، ولقد وجدت الروايات مختلفة حول هذا الموضوع ، وبعضهم يظن أن مرد ذلك الى أعمال قام بها كونت فلاندرز ، الذي شارك في هذه الحملة على رأس جيش خاص به (٣٤) ، فبعدها وصلت فرقنا الى دمشق ، وتمكنت من الاستيلاء على

البساتين والنهر ، ووضعت المدينة تحت الحصار ، قيل أنه اجتمع بالملكين كل على حدة ، وواحد بعد الآخر ، وطلب منهما بالحاح بأن تسلم المدينة بعد سقوطها اليه ، ويروى بأنه حظي بالموافقة ، ومع أن بعضا من نبلاء مملكتنا قد أبدى موافقته ، فإن الآخرين غضبوا لدى سماعهم بذلك غضبا شديدا ولم يقبلوا بحجة أن هذا الأمير الكبير كان عليه ان يكتفي بما يملكه ، سيما وأنه كان يتظاهر بالقتال في سبيل امجاد الرب ، لاسبيل نيل تعويضات اخرى ، لذا بدا امرا غريبا اصراره على اعطائه هذا الجزء الكبير من المملكة فهم انفسهم كانوا يأملون بأن الزيادات - مهما كان حجمها - التي ستحصل عليها المملكة عن طريق هؤلاء الامراء الشجعان ، وبفضل جهودهم ، ينبغي استخدامها لتوسيع رقعة ممتلكاتهم ، وقاموا تحت وطأة غضبهم ورفضهم بالسير في درب الخيانة ، حيث انهم فضلوا احتفاظ الدمشقيين بمدينتهم ، من أن يروها تعطى الى ذلك الكونت ، ويبدو من غير العدل ، ان يذهب هؤلاء الذين تحملوا مالم يتحملة سواهم ، وأمضوا حياتهم في القتال من أجل المملكة ، أن يذهبوا بدون أمل بالربح ، بينما تعطى الثمار للذين جاءوا لتوهم ، ثمارا هم جنوها بأنفسهم ، بعد جهد طويل مستمر .

ويقول آخرون بأن أمير انطاكية استخدم نفوذه لجلب الاخفاق لمشروع الملك لويس

فقد كان شديد الغضب بسبب تخلي هذا الملك عنه ، وتركه مغضبا ، فهو رغم كل ما قدمه اليه من احسان رفض تقديم المساعدة له بأي شكل من الأشكال ، ولهذا مارس ضغطه على بعض نبلاء الجيش ، وطلب تدبير الأمور بشكل يجبر فيه الملك لويس على التخلي عن مشروعه ويسبب عودته خالي الوفاض .

وتذهب بعض الروايات الأخرى الى القول بأنه مامن شيء من هذا القبيل قد حدث ، فيما عدا أن العدو قام برشوة بعض الافراد

بمبلغ كبير من المال ، ليسببوا كارثة كبيرة من هذا القبيل ، وتمضي هذه الحكايات الى القول أنه لمن الدهش ان هذه الأموال التي حصلوا عليها بالاثم والخيانة وجدوها مزيفة ، ولاتساوي شيئاً . (٣٥)

وهكذا تختلف الآراء حول تحديد المسؤولية في هذا العمل الممجوج ، علما بأنني لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة حول هذا الموضوع ، وعلى كل حال ، ومهما تكن أسماء المجرمين لا بد أنهم سينالون جزاءهم العادل الذي يستحقونه ، مالم يستغفروا الرب ، ويستجيب الرب لهم فيمنحهم الغفران (٣٦) .

وهكذا حدث أن عاد شعبنا – كما حكينا – دونما فخار وعم السرور بين صفوف الدمشقيين لمغادرة النصارى ، لأن الخوف كان حملاً ثقيلاً ، عليهم لكن بالنسبة لشعبنا كان الحال على العكس ، كما قيل : « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » . (٣٧)

وبعد العودة الى المملكة دعا الملك (بلدوين) ثانية الى اجتماع لجميع النبلاء ، لكن عبثاً فعل حين حاول الاعداد لعمل جديد يجلب اليهم المنفعة والفخار في أعين الناس ، ولقد اقترح بعضهم القاء الحصار على عسقلان التي كانت ماتزال في أيدي الكفار ، حيث أن هذه المدينة واقعة على مقربة من قلب المملكة ، وكان من الممكن نقل المعدات والأشياء الضرورية الى هناك ، وستكون مهمة سهلة التنفيذ لاتحتاج وقتاً طويلاً ، وبها اعادة الثقة الى نفوس المسيحيين ، لكن هذا الاقتراح رفض ، ورفضت معه اقتراحات أخرى بديلة ، بمجرد عرضها – اي قبل تفهمها – ذلك ان الرب بغضبه ، بدا وهو يحول كل مشاريعهم الى احباط .

٨- الامبراطور كونراد يعود الى بلاده ، لكن ملك الفرنجة تخلف في سورية .

اعتقد الامبراطور كونراد بأن الرب حرمه من نعمته ، وحظر التخصص للقيام بأي دور آخر في قضايا المملكة ، لذلك أمر بتجهيز سفنه ، وقال وداعا الى مملكته ، وبعد عدة سنوات من هذا الحادث توفي في بامبرغ ، وهناك دفن في كنيسة الكبرى ، وسط احتفال مهيب ، وكان كونراد مهيب الطلعة تقيا وشفوقا ، يتميز بسمو روحه ، وبطول خبرته في الأعمال العسكرية ، وكانت حياته وصفاته مثلا يحتذى به في كل مجال ، وستظل ذكراه خالدة أبدا (٣٨)

وقد خلفه على العرش فرديريك دوق سوابيا المشهور ، الذي كان رفيق الامبراطور الدائم أثناء حملة الحج ، وكان شابا له صفات محمودة ، وهو ابن الأخ الأكبر لكونراد ، وهو الآن يقوم بحكم الامبراطورية بكل نشاط ونجاح .

وامضى ملك الفرنجة سنة بيننا ، ثم مع عبور الربيع ، وبعدما امضى عيد الفصح في القدس ، عاد الى بلاده ومعه زوجته ونبلاءه وعقب عودته تذكر المساويء التي سببتها له زوجته أثناء الرحلة أو بالحري أثناء عملية الحج كلها ، لهذا قرر ابعادها ، ومنح الان بطلاقها بشكل رسمي امام اسقف المملكة ، بحجة وجود قرابة بينهما تحظر الزواج (٣٩) ، وقامت مطلقته هذه على الفور ، وقبل مضي اي وقت ، وحتى قبيل عودتها الى اكويتين - ميراثها من ابويها - فتزوجت هنري ، دوق نورماندي ، وكونت انجوا ، وبعد الزواج بفترة وجيزة خلف هنري ستيفن في ملك انكلترا ، وذلك ان ستيفن توفي دون ان يعقب ولدا ذكرا .

ووفق ملك فرنسا في زواجه الثاني ، عندما اقترن بماريا ابنة

امبراطور اسبانيا التي كانت فتاة مرضيا عنها من قبل الرب ،
وذات مكانة عالية لحياتها الطاهرة التي كانت اشبه بحياة القديسات (٤٠)

٩ - نور الدين يجتاح منطقة انطاكية ، ويهاجمه الامير ريموند وتنشب معركة يقتل فيها .

اصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعدا في الشرق اكثر سوءا
بشكل واضح ، ورأى اعداؤنا ان الاعمال التي نفذها قانتنا وملوكنا
الاقوياء كانت اعمالا عقيمة وان جميع الجهود التي بذلناها كانت بلا
جدوى ، وسخروا من القوة المتحطمة والمجد المتصدع للذين كانوا
يمثلون الاسس الجوهرية للمسيحيين ، وكانوا قد احتقروا بكل
وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت اسماؤهم ذاتها قد روعتهم من
قبل ، ولهذا السبب سمت جراتهم وشجاعتهم الى مستويات عالية
حيث لم يعودوا يخافون من القوات المسيحية ، ولم يترددوا عن
مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير ، فقد قام نور الدين بن زنكي بعد
رحيل الملكين مباشرة بجمع جيش ضخم من جميع انحاء الشرق
وبدا يجتاح المنطقة الواقعة حول انطاكية بشجاعة فريدة ، وبعدما
ادرك ان بلاد امراء اللاتينيين باتت خالية من المساعدة ، قرر ان
يحاصر القلعة المعروفة باسم انب (٤١) ، ووصلت الى ريموند امير
انطاكية انباء موثوقة عن هذا التحرك ، فاندفع بطيش مع بضعة
رجال نحو هذا الموقع فورا ، نون ان ينتظر مرافقة فرسانه الذين
كان قد استدعاهم ، لانه كان رجلا صاحب شجاعة واقدام لايعرف
الصبر ، ولم يسمح لنفسه ان تحكمها نصيحة اي انسان في قضايا
من هذا النوع ، وقد وجد نور الدين مايزال مصمما على محاصرة
القلعة المذكورة انفا .

عندما سمع نور الدين بان الامير كان قادما تردد في انتظاره
والتصدي له ، لانه خشي ان يحضر ريموند قوات كبيرة معه ، ولذلك

تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان آمن ، وبقي هاهنا حتى يتمكن من التحقق عن طريق تقارير متوالية عن نوع القوات التي كانت موجودة مع الامير ، وعمّا اذا كانت من المتوقع وجود احتياطات اكبر .

واصيب الامير بالتيه بسبب نجاحه الاول فتجرا اكثر مما ينبغي له ، وبدأ يتصرف بطيش الى حد ما (٤٢) ، فمع انه كان يمتلك القلاع في المنطقة المجاورة كان بإمكانه ان يبقى فيها بامان مع اتباعه ويعيدهم من هناك دون ان يتعرضوا للخطر ، فضل ان يعتمد على السهل المكشوف ، ورأى انه من غير اللائق ظهوره وهو منسحب - ولو لفترة مؤقتة - لخوفه من نور الدين ، وفضل ان يعرض نفسه لخدع العدو ، وعندما ادرك نور الدين ان الامير لم يتلق اية مساعدة اضافية ، اعتقد انه بإمكانه قهر القوات التي جلبها ريموند معه بسهولة ، ولهذا طوق جماعة الامير في تلك الليلة ، وانقض على المعسكر وكأنه يحاصر مدينة ما .

عندما اطل الفجر وبدأ الصباح رأى ريموند جيوش العدو تحيط به فبدأ يرتاب بقوته ، لكن للأسف بعد قوات الاوان ، ومع ذلك فقد عبأ صفوفه بترتيب المعركة ورتب فرسانه واستعد للقتال في مواقع متلاحمة ، وبدأت الحرب بهذه الطريقة ، وبما ان قوات ريموند كانت ابنى قوة ، فانها لم تتمكن من صد اعداد العدو الكبيرة ، فولت اديارها ولانث بالفرار ، وترك الامير وحوله عدد قليل من رجاله فقط ، وقد قاتل بشجاعة كمحارب شجاع وعالي المعنويات ، وبعدما انهكه القتال واضنيت روحه في آخر الأمر قتل بضربة سيف وسط المذبحة التي كان قد اقترفها ، وقطع الاتراك رأسه ويده اليمنى وتركوا البقايا المشوهة وسط جثث القتلى في ميدان المعركة .

وكان بين الذين سقطوا في تلك المعركة الفارس القوي والعظيم زينو صاحب مرعش الذي اسفت بلاده عليه الى الابد ، والذي كان

كونت الرها قد زوجه ابنته ، كما سقط نبلاء اخرون في الموقع نفسه لكن ضاعت اسماؤهم .

وكان ريموند رجلا صاحب روح نبيلة ، وكانت خبرته كبيرة وواسعة جدا في الحرب ، فقد كان العدو يخشاه كثيرا ، ومع ذلك ، كان قليل الحظ ، ان الاعمال الشجاعة الكثيرة والنبيلة التي نفذها في الامارة جديرة باعتبارها خاص ، لكن ينبغي علينا ان نسرع في استئناف الحديث التاريخي العام ولانستطيع التأجيل لتفاصيل من هذا النوع ، او ان نترك القلم يتباطأ حولها .

قتل ريموند في العام ١١٤٨ لتجسيد الرب وفي السابع والعشرين من حزيران وهو عيد الرسولين المقدسين بطرس وبولص ، وكان في العام الثالث عشر لحكمه (٤٣) ، ويدعى المكان الذي سقط فيه باسم العين المسورة ، وهو واقع بين مدينة افامية وقلعة الروج ، وعثر على جثة الامير بين القتلن وتم التعرف عليها بشارات وندبات خاصة ، فنقلت الى انطاكية وبخلت اليها بطقوس جليلة حيث دفن بين قبور اسلافة في ردهة كنيسة أمير الحواريين .

١٠ - نور الدين يعامل المنطقة بأسرها حسب هواه . الملك يسرع الى هناك لتقديم المساعدة . سلطان قونية يغزو بلاد كونت الرها .

ارسل نور الدين ، للدلالة على انتصاره ولزيادة مقامه وسمعته رأس ريموند وذراعه الايمن (اللذين كان قد امر بقطعهما لهذا الغرض) الى خليفة بغداد ، اقوى ملوك المسلمين وامرائهم ، وللبرهنة على ان المضطهد الاشد اربابا للامم بات قتيلا ، ثم جرى ارساله بعد ذلك الى بقية الحكام الاتراك جميعا في كل مكان من الشرق .

استسلم اهالي انطاكية للحزن المطلق بعدما حرموا من تأييد قائدهم العظيم ، وتذكروا بكلمات حزينه وبكاء وعويل وصراخ الانجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع ، ولم يقذف نبا وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الاحواز فحسب ، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولا وعرضا وملا قلوب العظماء والوضعاء جميعا بحزن كله مرارة .

كان نور الدين ، كآبيه مضطهدا جبارا للعقيدة المسيحية وللإسم المسيحي ، وقد رأى بعد مقتل امير المنطقة مع الجزء الرئيسي من قواته في المعركة ان المنطقة باسرها اصبحت تحت رحمته ، وبناء عليه بعث بجنوده على الفور وبدأ باجتياح المنطقة بأسرها بطريقة عدوانية ، وممر قريبا من انطاكية وحرق كل شيء موجود في جوارها وانتقل بعدها الى دير القديس سمعان الواقع في اعالي الجبال بين انطاكية والبحر ، وتصرف هناك بحرية ايضا وحسب هواه ، وعامل الجميع كما يحلو له بدون قيد او ضابط ، ونزل من هناك الى البحر الذي رآه الان لأول مرة واستحم هنالك بحضور جيشه اشارة الى انه قدم كفاتح حتى الى البحر ، واستولى اثناء مروره في مسيرة العودة على قلعة حارم التي لا تبعد اكثر من عشرة اميال عن انطاكية ، وعززها على الفور بالاطعمة والاسلحة والجنود بحيث تستطيع تحمل حصار يستمر لايام عديدة .

استولى الرعب الان على جميع الناس ، واذلت المنطقة امامه لان الرب اعطى طعمة لسيفه نخبة الجيش وامير المنطقة ، ولم يكن هنالك احد قادر على تقديم حماية ناجعة ضد المخاطر التي كانت تهددهم ، وكانت كونستانس ارملة الامير ريموند قد تركت مع ولدين وابنتين (٤٤) مع مسؤولية جزئية عن رعاية الامارة ، غير انه لم يكن هنالك اي قائد يمكنه ان يتولى مهام الامير وبعث الناس واخراجهم من حالة الاكتئاب التي كانوا يقعون بها ، وتقدم في هذا الطارئ ايمري بطريرك انطاكية ، وكان رجلا مقتدرا وصاحب ثروة

كبيرة ، وظهر ككافل للمنطقة المتضررة جدا وحام لها وقدم ، خلافا لعاداته ، المال بسخاء لاستئجار الجند ، ووفر بذلك بعض المستلزمات الفورية للمنطقة لبعض الوقت (٤٥) ..

اصابت انباء مقتل ريموند والوضع اليائس في انطاكية ملك القدس بالذعر ، فجمع الجنود فورا لنجدة اخوانه في المحنة وسارع بالتوجه نحو منطقة انطاكية ، وشجع حضوره كثيرا السكان المثبطي الهمة والذين لم يشعروا بأية ثقة بأنفسهم ، ووحد القوات التي قادها معه مع عساكر من سائر تلك المنطقة ودعا الناس للمقاومة ، ولكي يساعدهم على استرداد شجاعته المألوفة ، حاصر قلعة حارم ، التي كان العدو قد استولى عليها مؤخرا ، وذلك حسبما ذكرت انفا ، الا ان الموقع كان محصنا بشكل جيد لذلك تخلى عن المحاولة بعد ان قضى عدة ايام هناك بون نجاح وعاد الى انطاكية .

ونزل سلطان قونيه الى سورية ايضا مع جيش ضخم (٤٦) ، وذلك لدى سماعه نبأ مقتل الامير ، واستولى على قلاع ومدن كثيرة في تلك المنطقة ، واخيرا حاصر تل باشر على الرغم من ان جوسلين وزوجته وابناه كانوا ضمنها ، وارسل الملك خلال هذا الوقت كافل المملكة همفري مع ستين فارسا ليتولوا حماية قلعة اعزاز للحيولة بون قيام الاتراك بالاستيلاء عليها .

واخيرا اطلق الكونت سراح جميع رعايا السلطان الذين كان يحتجزهم كأسرى ، واعطاهم اضافة لذلك اثني عشر لباسا مدرعا ، وهكذا تم التوصل الى السلام بينهما ورحل السلطان ، وتقدم الكونت الى اعزاز في اليوم نفسه بعد ان تحرر من الحصار حيث اسرع من اعزاز الى انطاكية ليشكر الملك على اللطف الذي كان قد أظهره نحوه ، ثم ودع الملك بعدما زاره وعاد الى بلده بصحبة المرافقة المتواضعة التي كان قد جلبها معه (٤٧) .

أخذ الملك علي عاتقه مسؤولية المنطقة المنكوبة وبقي في انطاكية من أجل ذلك - رس حتى عادت الامور الى مجاريها بقدر ماسمح الوقت والزمن ، ثم عاد الى بلاده بعدما تحقق بعض الهدوء وذلك ليولي اموره الخاصة عنايته .

١١ - العدو يأسر بعد رحيل الملك من انطاكية كونت الرها وموته بشكل شائن .

كان جوسلين الأصغر كونت الرها انى كثيرا من ابيه في الصفات ، وكان رجلا كسولا ومهملا ومنغمسا في المسرات الخليعة والوضيعة ، كان شخصا رفض السبل الحميدة واتبع المهن والوضيعة ، وكان قد طارد امير انطاكية بكراهية شديدة واعتبر مقتله ابتسامة عظيمة من الحظ له . ولم يبالي كثيرا بصحة القول : « عندما يحترق منزل جارك تصبح ممتلكاتك في خطر » (٤٨) . ويقال انه انطلق الى انطاكية ليلا تلبية لدعوة البطريرك ، وكان برفقة غلام واحد كان يقود فرسه بعدما ترك حرسه وتنحى جانبا ليقضي حاجته الجسدية عندما هاجمه لصووص انطلقوا من كمين لم يدر بهم الذين تقدموه ولاالذين لحقوا به ، فقبضوا عليه واقتادوه مكبلا بالسلاسل الى مدينة حلب ، وسجن هناك حيث انهكته احوال السجن القذرة والسلاسل الحديدية الثقيلة واضعفته الالام الجسدية والعقلية نتيجة اساليبه الخليعة ووصل الى نهاية رهيبة .

وبحثت عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سيدها حيث كانت غير عارفة ابدا بما كان قد حدث ، ولم تتمكن من العثور عليه . وعندما ثبت ان بحثها كان عقيما ، عادت ونقلت نبأ الكارثة التي كانت قد اصابتها ، واصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد ، ولم يكن الناس قد شعروا حتى الان بأية عاطفة مع محن جيرانهم ، لكنهم عرفوا الان بعدما سحقتهم الكارثة كيف يتعاطفون مع متاعب

- ٣١٠٢ -

الآخرين بمحنة مشابهة ، وعلم فيما بعد من مصادر موثوقة ان الكونت كان اسيرا في حلب (٤٩) .

وتركت زوجته التي كانت امرأة محتشمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه ، مع ابن قاصر وابنتين ، وحاولت بمساعدة الرجال الرئيسيين الذين كانوا مايزالون في المملكة ، ان تحكم الناس بأفضل ما تستطيع ، وشغلت نفسها ويشكل يفوق كثيرا قوة المرأة في تعزيز القلاع في المنطقة وتزويدها بالاسلح والرجال والمواد الغذائية.

وهكذا ، حرم هذان البلدان - عقابا لاثامنا - من التوجيهات الحكيمة لامرائها ، وباتا يحاولان الصمود بصعوبة في ظل حكم الذسوة .

١٢ - الملك يعيد مع اعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان .

بعد وقت قصير من وقوع هذه الاحداث في منطقة انطاكية زارت الرحمة السماوية المملكة ، وتشجع الملك ونبلاؤه مجددا بعدما خرجوا من اعماق الكآبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قد اصابتهم وصمموا على اعادة بناء غزة ، واملوا بهذه الطريقة ان يضعوا حاجزا اكثر فعالية ضد اعدائهم المروعين من اهالي عسقلان ، ولنعمهم من القيام بغاراتهم المشؤومة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا تقع على بعد عشرة اميال جنوب عسقلان ، وكانت مخربة الان ومهجورة تماما ، وصمموا على اعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب